

الفكر الاجتماعي خلال القرنين السابع والثامن عشر

لقد لعبت عصور النهضة الأوروبية منذ القرن السادس عشر الميلادي دورا محوريا في نشأة المعرفة الاجتماعية بشتى أصنافها، وخصوصا بعد الثورات الفكرية الجديدة على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي، فهذه البيئة الجديدة التي بدأت حقيقة مع الفيلسوف الفرنسي 'رونيه ديكارت'؛ حيث كانت الدعوة مفتوحة 'العقلنة الحياة'، مما جعل فلاسفة الأنوار في القرنين السابع والثامن عشر (17-18) يعيدون التفكير في طبيعة المجتمعات التي يعيشون فيها، لذلك كانت 'نظرية العقد الاجتماعي' مع فلاسفة الأنوار مثل: 'طوماس هوبز وجون جاك روسو وجون لوك'، وبعدهم أمثال 'إيمانويل كانط و باروخ اسبينوزا'، واحدة من أهم النظريات الجديدة التي ستغير رؤية المفكرين فيما بعد إلى الحياة الاجتماعية، وبالتالي إلى تأسيس معاني جديدة ودلالات حديثة للمجتمع، كانت تطمح لتصل إلى مستوى 'المجتمعات اليوتوبية أو المجتمعات الفاضلة'، كما نظر لها 'طوماس مور'، وهو الذي سخر فكره لنقد الفساد الأخلاقي في المجتمع الإنجليزي، كمحاولة لإصلاح هذا الفساد الذي كان يرى فيه تخلفا.

إن الفلسفة الديكارتية ومعها فلسفة 'العقد الاجتماعي' جعلت من 'العقلانية' عنصرا أساسيا لظهور الفكر الاجتماعي، وقد مهد هذا التركيز على العقل الطريق لنهج أكثر منهجية وعلمية، لدراسة المجتمع، فقد رأى 'طوماس هوبز' أن الإنسان كان يعيش حالة من الفوضى قبل قيام الدولة الحديثة (حالة حرب الكل ضد الكل) التي تعتمد على القانون الوضعي الناتج عن التعاقد بين الأفراد؛ لذلك أقر من خلال كتابه 'الليفياتان-التنين' أن القضاء على حياة الفوضى والحرب التي كانت سائدة قبل العصر الحديث لابد أن تكون من خلال تغيير الأوضاع الاجتماعية بإرادة الأفراد، الأمر الذي أدى إلى بروز مجتمع جديد يقوم على تعاقد الأفراد أو على اتفاق مدني بينهم، على الأقل لتحقيق السلم والأمن، وبالتالي تغيير السلوك البشري ومعها الهياكل الاجتماعية والبنى الثقافية. وهي الدعوة نفسها التي ذهب معها الفيلسوف الفرنسي 'جون جاك روسو' من خلال كتابه 'العقد الاجتماعي' رغم اختلافه في طبيعة هذا العقد أو الاتفاق الإرادي عند طوماس هوبز؛ فروسو رأى أن الإنسان يجب أن يغير سلوكه، وذلك لا يكون إلا داخل مجتمع يؤمن بالقانون، هذا التغيير الذي حصل جعل الإنسان يعرف أفكارا جديدة كالمساواة والواجب والعدالة وغيرها من المفاهيم التي أعادت بناء مجتمع مختلف.

من جهة ثانية فالفكر الأنواري ساهم في ظهور عنصر أو عامل آخر سيكون له تأثير على نشأة وظهور الفكر الاجتماعي، وخصوصا العلوم الاجتماعية والإنسانية؛ حيث دعا مفكروا عصر الأنوار إلى تغيير مناهج دراسة السلوك البشري، وبالتالي إلى تطبيق 'الملاحظة التجريبية' خصوصا مع الفيلسوف الإنجليزي 'جون لوك'، الذي نادى بضرورة قياس السلوك

الإنساني بناء على نهج جديدة يقوم على ما يسمى قيما بعد 'بالمنهج التجريبي'، التي ترسخت معاييرها مع العديد من المفكرين الآخرين، وبالتالي فالتركيز على الأساليب التجريبية ستشجع الباحثين فينما بعد على ابتكار وسائل وأدوات جديدة لدراسة الظواهر الاجتماعية والإنسانية دراسة منهجية، خصوصا 'الملاحظة التجريبية'، مما يعني أن 'مبدأ التجريب' كان عاملا حاسما بدوره أمام 'مبدأ العقلانية'.

بالإضافة إلى ذلك، فقد مهد فلاسفة الأنوار إلى أفكار أخرى مهمة في هذا الباب، وهي التركيز على 'النزعة الإنسانية' و 'حقوق الفرد'، فالأولى تعتبر أن الإنسان هو أكثر كائن ينبغي أن يحظى بالدراسة، وأن الجوانب التي تعرفها العلم حوله ضئيلة جدا، وهي الدعوة التي لقيت اهتمام واحد من أهم فلاسفة الأنوار، وهو فيلسوف النقد 'إيمانويل كانط' التي تعددت أفكاره حول الكرامة والحقوق المتأصلة للأفراد، واستكشف تجارب الأفراد وحقوقهم وتفاعلاتهم داخل البنى الاجتماعية، حتى صار مفهوم 'الحقوق الفردية' و 'الاستقلالية الفردية' محوريا في كل النقاشات الفكرية والفلسفية المرتبطة بالتنظيمات الاجتماعية أو بالبنيات الاجتماعية بشكل عام.

إن هذا النقاش الواسع الذي ساد في القرنين السابع والثامن عشر الميلاديين، أدى من جهة أخرى إلى بروز أفكار أخرى سيكون لها تأثير على نشأة علم الاجتماع فيما بعد بشكل خاص، نخص بالذكر عاملا آخر مهم في هذا النقاش وهو 'العلمانية وفصل السلط'، وخصوصا مع المفكر 'مونتسكيو' من خلال كتابه الشهير 'روح القوانين'، بحيث ساهم في علمنة المعرفة وفصل الدين عن الدولة، فهذا التحول الجديد شجع على دراسة الظواهر الاجتماعية والإنسانية بمعزل عن العقائد الدينية، مما سهل ظهور دراسة علمية وموضوعية للمجتمع، بل أكثر من ذلك، ساهم في نقد 'التقاليد المجتمعية' و 'السلطة التقليدية'، الأمر الذي سيجعل رواد علم الاجتماع ومؤسسيه الأوائل ينتبهون إلى ضرورة دراسة الهياكل الاجتماعية الموروثة والسلطات التقليدية، وبالتالي تحليل المؤسسات ودراسة الأعراف و الممارسات وغيرها من التغييرات الجديدة التي جاءت بها تلك الأفكار.

باختصار وفر عصر الأنوار خلال القرنين السالفين، بيئة فلسفية وفكرية جديدة شجعت على التفكير 'العقلاني' و 'النقدي' و 'البحث التجريبي' و 'التركيز على التجارب الإنسانية' بشتى أشكالها، و طبيعة الحياة بمختلف أنماطها 'الدولة والسلطة' و 'القانون' و 'المجتمع'، وغيرها، وبالتالي يمكن القول أن إرث عصر التنوير تجلى في المفاهيم والمنهجيات الأساسية التي صارت تشكل الفكر الاجتماعي والإنساني اليوم.

